والفلسفات وجوامع الحكم الشرقية التي تم تدجينها لكي يصار إلى استخدامها محلياً في أوروبا ـ ويمكن المضي في التعداد وتطويل هذه القائمة إلى ما لا نهاية له تقريباً . والنقطة التي أود تسجيلها هي أن الاستشراق يستمد من قرابة خاصة تقوم خبرتها بين بريطانيا وفرنسا والشرق ، حيث كان هذا الشرق يقتصر في معناه بالفعل حتى مطلع القرن التاسع عشر على الهند وأراضي التوراة فقط . ومنذ بداية القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية سيطرت كل من فرنسا وبريطانيا على الشرق والاستشراق . بينما نجد اميركا قد سيطرت على الشرق منذ الحرب العالمية الثانية ، وهي تقارب هذا الشرق على غرار ما فعلته بريطانيا وفرنسا . ومن صميم هذا الاقتراب بديناميتها المنتجة على نحو هائل حتى وان كانت تبرهن دائماً على القوة الأكبر نسبياً وبالمقارنة التي يمتلكها الغرب (سواء كان فرنسياً أم بريطانياً أم أميركيا) ، تخرج تلك المجموعة الكبيرة من النصوص التي أدعوها بنصوص استشراقية » .

ومما ينبغي قوله على الفور أنه بالرغم من ذلك العدد السخي من الكتب والمؤلفين الذين أتناولهم بالدراسة والتمحيص ، هناك عدد أكبر بكثير ترتب علي بكل بساطة أن أتركه جانباً وخارج نطاق هذا الكتاب . بيد أن حجتي لا تعتمد على قائمة شاملة من النصوص التي تعالج الشرق ولا على مجموعة محددة المعالم بوضوح من النصوص والمؤلفين والأفكار التي تؤلف مجتمعة قانون الاستشراق ، وقاعدته الأساسية . لقد اعتمدت عوض ذلك على بديل منهجي مختلف ـ حيث يتألف العمود الفقري لهذا البديل بمعنى من المعاني من مجموعة التعميمات التاريخية التي درجت على إطلاقها حتى الآن في هذه المقدمة ـ وهي التعميمات التي أريد الآن مناقشتها بمزيد من التفصيل التحليلي .

ـ ٢ ـ

لقد بدأت بالافتراض القائل إن الشرق ليس واقعة خاملة من وقائع الطبيعة . فهو ليس مجرد **هناك** فحسب ، مثلما ان الغرب ذاته ليس **هناك** تماماً . ينبغي لنا أن نأخذ بعين الجدية ملاحظة فيكو العظيمة بأن الناس لا يصنعون تاريخهم ، وان ما يمكنهم معرفته هو ما صنعوه ، وان نسحب هذه الملاحظة على الجغرافيا : باعتبارها تنطبق على الوحدتين ـ الجغرافية والحضارية ـ ناهيك عن الوحدات التاريخية ـ فالأماكن والمناطق في القطاعات الجغرافية مثل « الشرق » و « الغرب » هي من صنع الانسان .لذا ، فان الشرق ، بقدر ما هو الغرب ذاته ، هو فكرة لها تاريخ وتقليد فكري ، وصور متخيلة ومخيرة لغوية اسبغت عليه حقيقة وحضوراً في الغرب ومن أجله . وهكذا فان الوحدتين الجغرافيتين تتساندان وتعكس الواحدة منهما الأخرى إلى حد ما .

بعد إطلاق هذا القول يجب علينا المضي قدماً نحو بسط عدد من الاستدراكات المعقولة . ففي المقام الأول ، إنه لمن الخطأ الاستنتاج بأن الشرق كان في جوهره فكرة أو بدعة لا تقابلها حقيقة واقعة . وعندما قال دزرائيلي في روايته **تانكرد** بأن الشرق هو مهنة حياة عملية ، كان يقصد من وراء ذلك القول ان الاهتمام بالشرق كان شيئاً سوف يجده الشبان الغربيون اللامعون بمثابة الهوى الذي يستقطب كافة مشاعرهم . فلا يجب تفسير دزرائيلي بأنه يقول عن الشرق إنه مهمة حياة عملية فحسب للغربيين . كانت هناك ـ وهي لا تزال موجودة ـ حضارات